الجمهورية العربية المتحدة
وزارة الثقافة

من
أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة
مارس — أبريل ١٩٦٩

دراسة فى الزجاج المصرى

عبد الرؤوف على يوسف

أمين أول متحف الفن الإسلامى — القاهرة — وزارة الثقافة

مطبعة دار الكتب
١٩٧١

دراسة فى الزجاج المصرى

عبد الرؤوف على يوسف

أمين أول متحف الفن الإسلامى - القاهرة - وزارة الثقافة

دراسة فى الزجاج المصرى

عبد الرؤوف على يوسف

يضم متحف الفن الإسلامى بالقاهرة تحفتين متشابهتين من الزجاج، عبارة عن دورقين صغيرين بدنهما كمثرى الشكل ، ولكل منهما فوهة بيضاوية الشكل ، ينتهى طرفها بجزء صغير مسحوب يكون المصب، ويقابله مقبض يتألف من شريط زجاجى ينثنى من أعلاه ، ليكون نتوءا يرتكز عليه أبهام اليد عند الاستعمال .

ويحمل الدورق الأول رقم سجل ١٣١٠٤ ، وقد اقتناه المتحف عن طريق الشراء من التاجر موريس نحمان بالقاهرة سنة ١٩٣٥ (شكل ١) .

أما الدورق الثانى فقد ضم لمجموعات المتحف عن طريق الإهداء سنة ١٩٥٠ ، وسجل برقم ١٦٣٧٣ (شكل ٢) .

وقد ذكر بسجل المتحف أن الدورق الأول يحمل نصا بالخط الكوفى يقرأ « عمل أحمد بن هنيدا » ، أما الدورق الثانى فقد اقتصر على ذكر أنه مزين بكتابة كوفية . ولم ينشر أى من هذين الدورقين من قبل .

ويمتاز الدورق الأول بأنه أكثر جمالا وتناسبا من الدورق الثـانى، فنجد له رقبة لطيفة رشيقة ، ومقبضا رقيقا يزيدان من جماله ، أما الدورق الثـانى فرقبته قصيرة ، تعطى للبدن شكلا مخروطيا ، ومقبضه أكثر سمكا ، ويمتـاز هذا الدورق الأخير بعروة للتعليق فى أعلى البدن. ويحمل كل من الدورقين سطرين من الكتابة الكوفية البارزة :

ومن دراستنا لهاتين التحفتين أمكننا أن نتبين فيهما مثلين جديدين من مجموعة متشابهة من الدوارق عددها أربعة ، وكلها ذات بدن كمثرى ومنفوخة فى القالب — هذه المجموعة التى قام بنشرها الأستاذ رايس D. S. Rice فى صحيفة الجمعية الأسيوية الملكية بلندن سنة ١٩٥٨ م (ص ٨ — ١٦) .
"Journal of the Royal Asiatic Society"

وقد نشر الأستاذ رايس فى بحثه هذا دورقا فى متحف الفن بمدينة توليدو بولاية أوهايو الأمريكية ، وذكر أنه مطابق فى كتاباته وزخارفه لدورق آخر كان محفوظا فى مجموعة أسرة « ا . تشرشل » بلندن (A. Churchill)

وقرر الأستاذ رايس أن هذين الدورقين لابد وأن يكونا قد نفخا فى قالب واحد ، وكذلك ذكر أن الدورق المحفوظ بمتحف المتروبوليتان بنيويورك (١) مطابق لدورق رابع محفوظ فى مجموعة السيد « أرنست كوفلر » (Ernst Kofler) بمدينة لوسرن بسويسرا ، وأنهما نفخا فى قالب مشابه آخر أقل حجما من القالب السابق .

وقد قرأ الأستاذ رايس السطر الأول من الكتابة «مما عمل للأمير ببغدا[د]» ، كما قرأ السطر الثانى « عمل طيب (طلب) بن أحمد بن مسى » .

---

(١) م . س. ديماند : الفنون الاسلامية (ترجمة أحمد عيسى) ص ٢٣١ ، القاهرة ١٩٥٣

أما عن السـطر الأول فلا خلاف على الكلمتين « مما عمـل » نجدهما واضحتين على تحفتى متحف الفن الإسلامى ، يليهما كلمة « الأمير » نجـدها مقسومة نصفين ، يفصل بينهما الخط البارز الفاصل بين نصفى القالب على أحد الدورقين ، بينما نجدها كاملة على الدورق الآخر رقم سجل ١٣١٠٤ ، وتتكون الكلمة الأخيرة من أربعة حروف يمكن قراءتها « بيعة » ، ولما كان المتبع وما نتوقعه دائما بعد عبارة « مما عمل للأمير » أن نجد اسمه ، فإن هذه الكلمة الأخيرة تصبح اسما واضحا إذا أضفنا إلى أولها حرف « راء »، فتصير « ربيعة » (أشكال رقم ١ ، ٢ ، ٣) ، ولعل حرف الراء هذا قد سقط سهوا ممن قام بحفر القالب ، وربما يكون الصانع قد تعمد عدم تكراره بعـد حرف الراء الأخيرة فى كلمة « الأمير » ، ونقرأ الحرف الأخير من هـذه الكلمة الرباعية حرف « هاء » منتهية ، بدلا من قراءتها حرف دال ، « د »، كما فعل الأستاذ رايس فجعلها « ببغدا » وافترض وجود حرف « د » ثانيـة بعد حرف الألف ، وأن هذه الدال الأخيرة ربما تكون قد فقدت بين نصفى القالب ، وكذا رجح قراءة هذه الكلمة « ببغداد » . ويبدو أن الأستاذ رايس قد اعتمد على الدورق الذى كان فى حوزة « أ . تشرشل » بلندن ، والذى اشـتراه بعد ذلك السيد ارنست كوفلر بلوسرن وضمه إلى زميـله المشابه فى مجموعته ، وقد تفضل السيد كوفلر بتزويدى بصور تفصيلية ، وصورة لقالب جصى للنص ، وتبينت وجود خط رئيسى بارز ، بعد هـذه الكلمة الرباعية فى السطر الأول ، ولعل هذا الخط هو الذى دفع الأستاذ رايس إلى وضع حرف « ألف » بعد الدال الأولى :

ولكن هذا الخط الرأسى أو مايشبه حرف الألف لانجده فى باقى الدوارق من هذه المجموعة[١]، ولعله وضع هنا لملأ الفراغ ، وذلك لقلة عدد كلمات النص العلوى عن النص السفلى :

وهنا يبرز السؤال من يكون الأمير ربيعة هذا ؟ وبمقارنة أسلوب الكتابة وأشكال الحروف على هذه الدوارق بمثيلتها على العملات وصنج السكة الزجاجية من العصر الطولونى نجد على بعض هذا النوع الأخير عبارة « مما أمر الأمير أحمد بن طولون » وعلى بعضها الآخر اسمه فقط مسبوقا بلفظ الأمير بعبارة « الأمير أحمد » وعلى صنجة أخرى نجد اسم ابنه « الأمير خمارويه »[٢] ، فاذا تأملنا أشكال الحروف على مجموعة دوارقنا هذه نجدها مطابقة لأسلوب الخط وأشكال الحروف من هذا العصر أيضا .

ولذا نعتقد أن هذه المجموعة من دوارق الشراب تحمل اسم أحد أمراء الدولة الطولونية فى مصر هو الأمير ربيعة بن أحمد بن طولون الذى كان يحيا حياة الترف والتنعم حتى كانت ثورته على ابن أخيه هارون بن خمارويه ، ومقتله سنة ٨٩٦ م .

أما السطر الثانى على دورقى متحف الفن الإسلامى السابق الذكر فيمكن قراءته « عمل نصير بن أحمد بن هيثم(؟) » (شكل ٣)، ولعل الأحرف التى تنتهى بها الكلمة الأخيرة تحتاج لبعض التحقيق ، أما باقى العبارة فتبدو واضحة ، وهى تدل على اسم الزجاج ، أو صانع القالب :

---

(١) زودنى كل من الأستاذ الدكتور إرنست جروبه والآنسة مارلين جنكينز مشكورين بمجموعة من الصور التفصيلية للدورق المحفوظ بمتحف المتروبوليتان ، رقم سجل (X. 121. 191) .

(٢) من أمثلة هذه الصنج الصنجتان برقمى سجل ١٨٥٣٥ ، ١٨٥٤٧ بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة ، الأولى باسم أحمد بن طولون وعلى الثانية عبارة « الأمير خمارويه » .

ولقد قرأ الأستاذ رايس الاسم الأول « طيب أو طلب » ، بالرغم من أنه لاحظ وجود حرف شبيه بحرف اللام قبل هذه الكلمة على الدورق الأول بمجموعة أرنست كوفلر .

ويضم متحف الفن الإسلامى بعض قطع من الزجاج عليها اسم صانعها « عباس بن نصير »[١] يرجح أنها من العصر الفاطمى ، وهنا يمكن أن نتساءل عن صلة قرابة بين هذا الزجاج وصانع هذه الدوارق الجميلة « نصير بن أحمد ابن هيثم » .

كذلك يضم متحف الفن الإسلامى كسرتين أخرتين من الزجاج (رقم سجل ١٤٨٤١ ، ١٩٧٣٧) ، وقطعة ثالثة فى إحدى المجموعات الخاصة بالقاهرة (شكل ٥) عليها كتابة بارزة مختومة نصها « عمل بمصر »[٢] بنفس أسلوب الخط والكتابة على مجموعة الدوارق هذه ، فضلا عن تشابه نوع الزجاج ، مما يؤيد نسبة هذه المجموعة إلى مصر وليس إلى الشام أو العراق ، كما كانت تنسب حتى الآن[٣] .

---

(١) لام : الزجاج فى العصور الوسطى ص ١١٧ لوحة رقم ٥ ، زكى حسن : كنوز الفاطميين ص ١٨٣ . ويضم متحف الفن الاسلامى ثلاث قطع عليها أسم هذا الصانع ارقام سجلها ٨١٦٧ ، ٢ ١٢٦٣٨ ، ١٥٥٧٩ .

(٢) كذلك تحمل بعض صنج السكة الزجاجية منذ فجر الاسلام اسم « مصر » بخط كوفى بسيط ككان لصناعتها . انظر عبد الرحمن فهمى : الشارات المسيحية على السكة الاسلامية لوحة ٨ شكل ٢٣ ، ٢٤ ، ص ٣٥٣ : المؤتمر الثالث للاثار فى البلاد العربية فى فاس . القاهرة : ١٩٦١ م .

(٣) م . س . ويماند : المرجع السابق ص ٢٣١ .

ويعرض متحف الفن الإسلامى هذين الدورقين فى الخزانة رقم (١) بقاعته الزجاج رقم (٢١) :

ويضم متحف الفن الإسلامى قطعة أخرى من الزجاج ذى البريق المعدنى، فريدة فى بابها (رقم سجل ٦-١٢٧٣٩)[١] تعتبر أقدم قطعة مؤرخة وهى تمثل قاع إناء صغير ، مزخرف بأسلوب البريق المعدنى (قطر ٥,٥ سم — ارتفاع ١,٧ سم) تزينها هيئة وريدة حولها نص دائرى من الكتابة الكوفية بحروف بسيطة قرأته « مما عمل فى طراز الفيلة بمصر سنة ١٦٣ » (شكل ٤)، ونلاحظ أن أرقام هذا التاريخ الهجرى مكتوبة بالأرقام القبطية ، ويقابل هذا التاريخ سنة ٧٧٩ م. ويحيط بالنص بقية زخارف نباتية باللونين الأصفر والبنفسجى الداكن ، وقد ساعد على تحقيق التاريخ خاصة الرجوع إلى وثائق البردى العربية بدار الكتب ، والتى نشرها أستاذنا أدولف جروهمان[٢] ، ونلاحظ أنه قد استمر كتابة التواريخ الهجرية بالحروف القبطية فى بعض الوثائق فى مصر حتى العصر الفاطمى[٣] .

ويقع هذا التاريخ الذى تسجله هذه الوثيقة الزجاجية (سنة ١٦٣هـ) ، فى عهد والى مصر يحى بن داود بن ممدود الحرشى ، وكنيته أبو صالح[٤] ، وقد تولى إمارة مصر من قبل الخليفة العباسى المهدى فى الفترة من ذى الحجة سنة ١٦٢ هـ إلى ١٠ المحرم سنة ١٦٤ هـ :

(١) نشرت هـذه التحفة لأول مـرة فى مقالنا عن « الزجاج » ضمن موضوعـات الاهرام الخاصة عـن القاهـرة — صحيفة الاهرام عـدد ٢٢ ينـاير ١٩٦٩م .

(٢) أوراق البردى العـربية جـ ٢ ص ١٧٣ ، ١٧٤، رقم ١٩٦ لوحة ٢٠ سطر ١١، جـ ٤ وثيقة ٢٢٦ لوحة ٣ سطر (٥) ، لتحقيق رقم (ستين)٠وانظر كذلك عبد الرحمن فهمى: الشارات المسيحية والـرموز القبطية (المرجع السابق) لـوحة رقم (٩) نقلا عـن : (A. Mallon : Grammaire Copte, 1926.)

(٣) جروهمان : المـرجع السابق جـ٣ ص ١٦٥ ، ١٦٦ ، إيصال مؤرخ (٥٠٤ هـ)

(٤) ذكـر زامبور فى « معجم الاسرات الحاكمـة فى التاريخ الاسلامـى جـ أ ص ٣٩ هامش (٥) أن اسم هذا الوالى يحتمل أن يكون يحيى بن سعيد » كما ذكر الطبرى جـ٣ ص ٤٩٣ .

ويذكر المقريزى (الخطط ج ١ ص ٣٠٧) عن هذا الوالى أنه كان من أشد الناس وأعظمهم هيبة وأكثرهم عقوبة ، فمنع من غلق الدروب بالليل ومن غلق الحوانيت حتى جعلوا عليها شرائح القصب لمنع الكلاب ، ومنع حراس الحمامات أن يجلسوا فيها ، وقال من ضاع له شيء فعلى أداؤه ، فكان الرجل يدخل الحمام فيضع ثيابه ويقول يا أبا صالح احرسها ، فكانت الحال على هذا مدة ولايته .

وترجع أهمية هذه القطعة ليس فقط إلى تاريخها المبكر ، ولكن لذكر مكان الصناعة أيضا فى النص « فى طراز الفيلة بمصر » ولعل أرجح التفسيرات لهذه العبارة هو « مصنع الفيلة » بالفسطاط ، ولما كان النص غير منقوط فيمكن قراءة الكلمة على عدة وجوه: منها « الفيلة » أو « القيلة » جمع فيل . وتحدثنا المراجع عن « دار الفيل» التى كانت من أهم دور الفسطاط[1] وكذلك نعرف « جامع الفيلة » الذى بناه الأفضل بن بدر الجمالى فيما بعد سنة ٤٧٨ هـ بسطح الجرف المطل على بركة الحبش، وسمى بذلك لوجود تسع قباب فوقه، فى جانبه القبلى كانت تبدو بشكل الفيلة لمن يرى المسجد من بعيد، ذكر هذا المقريزى فى حديثه عن الجوامع[2]، ثم نجده يشير إليه بعبارة أخرى فى الحديث عن إنشاء المرصد (الرصد) فيقول « .... فأجمعوا على سطح الجرف بالمسجد المعروف بالفيلة الكبير .... » .

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٤٧٤ ، ٥٠٣ ، ٥٠٦ . كانت هذة الدار لأبى عثمان مولى الأمير مسلمة بن مخلد الأنصارى ، وذكر محمد رمزى : القاموس الجغرافى . ، البلاد المندرسة ص ١٥٢ ، ١٥٣ أنها كانت على بركة قارون واشتراها كافور الاخشيدى من حبس بنى مسكين (جنان بنى مسكين) ، وموقعها على سكة المذبح من الجهة الشمالية منها جنوبى البغالة بالسيدة زينب . كما ذكر أيضا أن هذة الدار هى غير «دارالفيلة» التى أنشأها خماروية على حافة بركة الفيل حيث شارع نور الظلام الآن .

(٢) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢٨٩ .

فلعل لفظ « الفيلة » هذا كان يطلق على المكان أيضا فى هذا الموضع (منطقة الحرف) وليس فقط تشبيها للقباب على جامع الأفضل بشكل « الفيلة »

ولعل لفظة « الفيلة » اختصار أو تحريف لاسم بلدة « فيلس » القديمة بمصر الوسطى التى جاء ذكرها فى وصف رحلة العائلة المقدسة ببعض الأماكن بصعيد مصر . يقول المقريزى « .... ثم أنهم ساروا من الأشمونين ، وأقاموا بقرية تسمى « فيلس » مدة أيام ، ثم مضوا إلى مدينة تسمى « قس وقام » ، وهى التى يقال لها اليوم « القوصية » (خطط ج ١ ص ٢٣١) ، كذلك جاء فى (القاموس الجغرافى) ذكر « كفر الفيلة » كأحد كفور « البربا الكبرى » بالأشمونين [(١)]. كذلك ذكرت مدينة « فيلوتريس » وهى من المدن المندرسة التى أنشئت بالفيوم فى عهد البطالسة [(٢)] ، وإن كان هذا الافتراض الأخير يستتبع أن تعنى كلمة « مصر » التى تلى كلمة « الفيلة » مصر كلها وليست مدينة الفسطاط ، والمعروف أن منطقة الأشمونين هذه كانت ذات شهرة قديمة أيضا فى صناعة الزجاج قبل الإسلام .

ومن القراءات ذات المعنى لهذه الكلمة أيضا « القبلة » وتذكر فى المراجع التاريخية لتدل على الكعبة الشريفة أو الاتجاه اليها (الاتجاه الجنوبى الشرقى) جاء فى ذكر مدائن أرض مصر بالخطط « ومن كور القبلة كرى الحجاز وهى كورة الطور وفاران وكورة راية والقلزم وكوره أيلة وحيزها ومدين والعونيد والحوراء وحيزها ثم كورة بدا وشغب [(٣)]. »

---

(١) محمد رمزى : القاموس الجغرافى . البلاد الحالية ج ٣ ص ١٨٤ سنة ١٩٦٠ . وينطق لفظ (الفيله) بفتحتين على الفاء والياء ، وتتبع هذه البلدة حاليا مركز ابى قرقاص بمديرية المنيا.

(٢) المرجع السابق ج ١ ص ٣٤٤ .

(٣) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٧٣ .

كما تستعمل كلمة «القبلة» أيضا بمعنى محراب الجامع ولكننا نستبعد وجود مصنع للزجاج كان يحمل هذا الاسم «طراز القبلة» وينسب إلى قبلة الصلاة.

وارجح التفسيرات هو أن نعتبر كلمة الفيلة علما على أسم المصنع أو المدينة كما ألفنا غالبا أن نجـــد تفسيرا لنوع مصانع النسيج بعبارات نصها « مما عمل فى طراز الخاصة ، أو العامة بمدينة . . . . كذا » .

وتبقى الاشارة إلى أهمية هـــذه القطعة الزجاجيه بمتحف الفن الاسلامى فى اثبات استخدام أسلوب البريق المعدنى المتعدد الالوان على الزجاج فى هذا الوقت المبكر من القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى) ويرجح هـــذا الدليل كفة مصر فى السؤال الذى كان يتردد منذ مدة طويله عن أصل أسلوب الزخرفة بالطلاء المعدنى على الزجاج والخزف ، هل موطن هـــذا الاسلوب مصر أو العراق أو ايران ؟ ؟

وبناء على هـــذا الدليل نستطيع أن ننسب إلى مصر تحفا جميلة من الزجاج ذى البريق المعدنى عثر عليها بالفسطاط آخرها الكأس الزجاجية الجميلة ذات البريق المعدنى التى عثرت عليها بعثة مركز البحوث الامريكى بالقاهرة فى حفائرها بمنطقة الفسطاط عام ١٩٦٥ والتى تحمل أسم الامير عبد الصمد بن على وإلى مصر سنة ١٥٥ هـ (٧٧٢ — ٧٧٣م) والتى تخلو من ذكر مكان الصناعة [1].

(١) جـــورج اسكانلون : مجلة الآثار «Archaeology» جـ ٢١ ص ١٩٥ وشكـــل ملون مقابل ، يونية سنة ١٩٦٨م . الكأس محفوظ بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة برقم سجل ٢٣٢٨٤ .

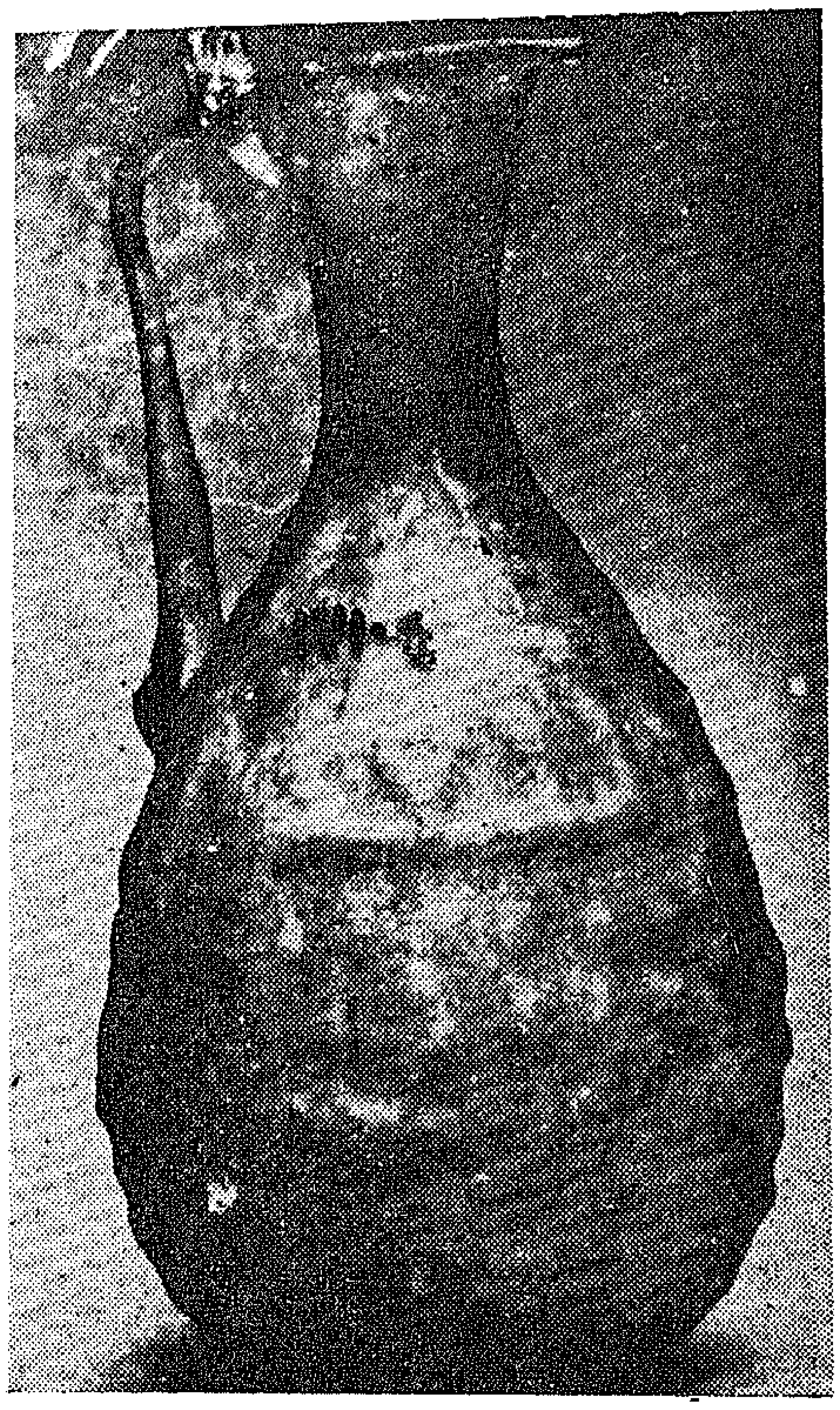

شكل رقم (١)

دورق رقم سجل ١٣١٠٤ بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة

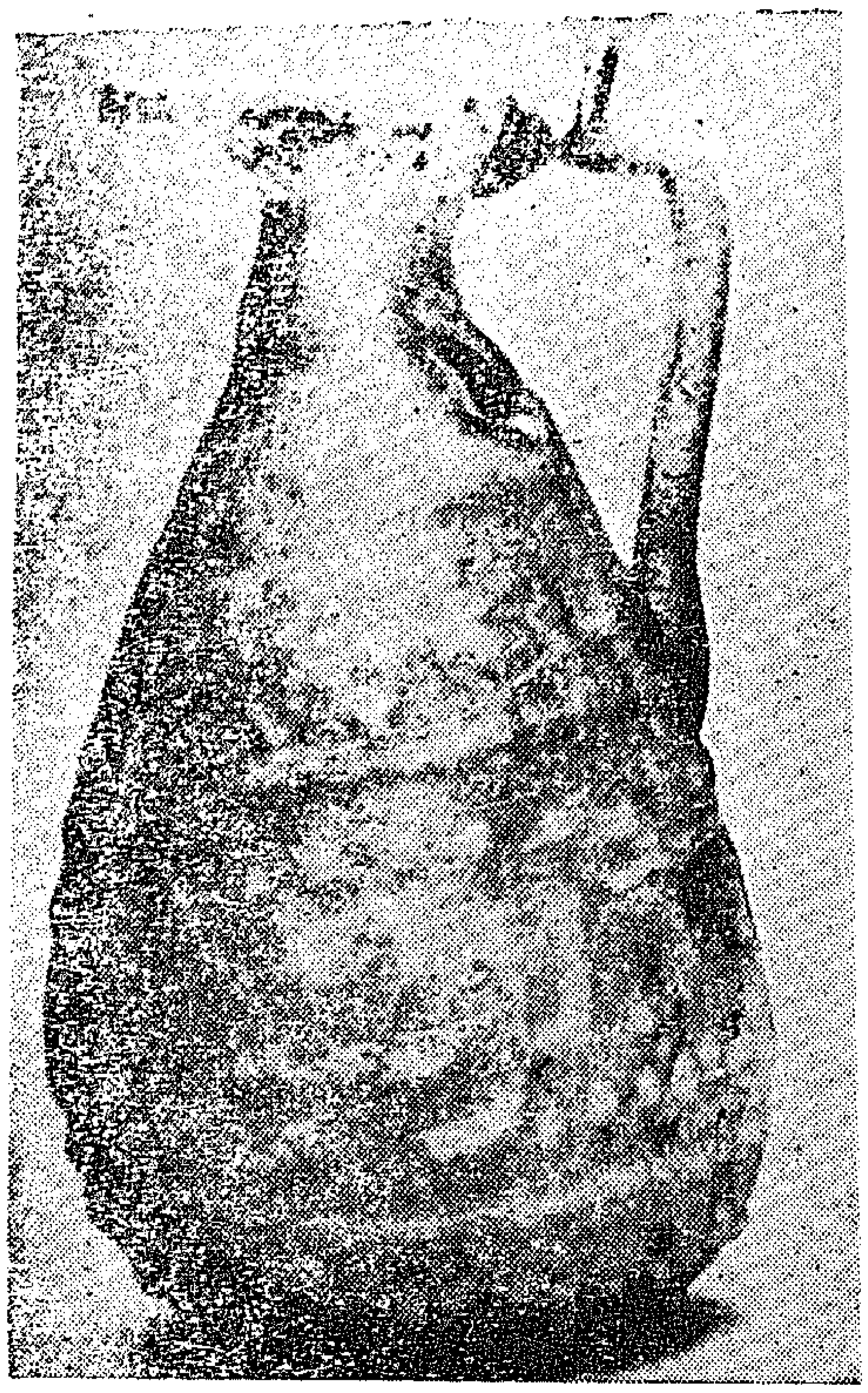

شكل رقم (٢)

دورق رقم سجل ١٦٣٧٣ بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة

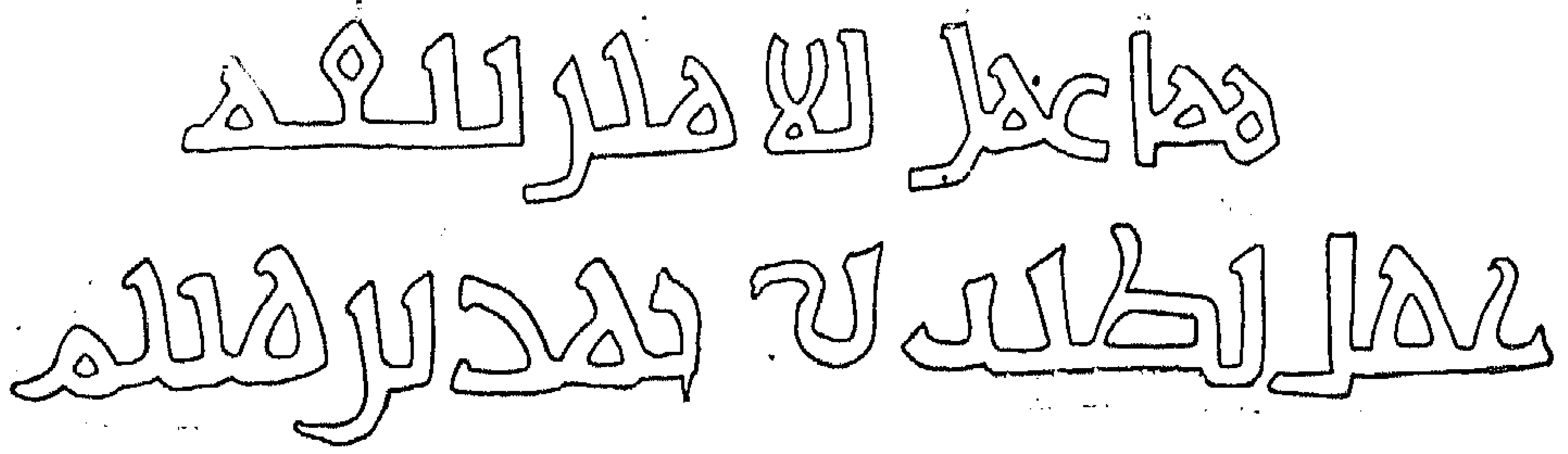

شكل رقم (٣)
نص الكتابة على دورق متحف الفن الإسلامى بالقاهرة

شكل رقم (٤)
قاع إناء زجاج مزخرف بالبريق المعدنى عليه عبارة نصها « مما عمل فى طراز الفيلة بمصر سنة ١٦٣ »
وأرقام التاريخ الهجرى مكتوبة بأرقام قبطية